وجيه ابو ذكرى



مذبحة الأبرياء

في ٥ يونيه

المكتب المصري الحديث

مذبحة
الأبرياء

الطبعة الأولى ١ / ٦ / ١٩٨٨

الطبعة الثانية ١٥ / ٦ / ١٩٨٨

الطبعة الثالثة ٣٠ / ٦ / ١٩٨٨

الطبعة الرابعة ١٥ / ٩ / ١٩٨٨

الناشر : المكتب المصري الحديث

١ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة . تليفون ٣٩٢٤١٢٧

٧ شارع سوبتار المنشية بالإسكندرية . تليفون ٤٨٢٦٦٠٢

وجيه أبو ذكرى

مذبحة الأبرياء

مقدمة

لا أنكر أنني كنت من المؤيدين لإرسال قوات مصرية لليمن ، ولا أنكر أنني تصورت أن تحرير اليمن من الاستعمار القبلي هو إضافة لقوة مصر ، ولا أنكر أنني تصورت أن القيادة السياسية تضع عينا على ثورة اليمن ، وعينا لا تنام على إسرائيل ، وأن مصر لديها القدرة على معارك اليمن ، والقدرة في ذلك الوقت على اقتحام حصون إسرائيل ودك مدنها وتحرير أرض فلسطين ...

هكذا كان تصوري في بداية ثورة سبتمبر ..

حتى كان يوم من شهر يونيو عام ١٩٦٤ .. وكنت في اليمن ، بعد أن تركت القاهرة بيوم واحد ، وكانت القاهرة تعيش في أزمات طاحنة ، حتى أنهم فتحوا المصرف الصحي في الجيزة على ترعة يشرب منها الناس لعدم وجود ميزانية لإصلاح وتركيب مواسير المصرف الصحي . في ذلك الوقت اقترح على الفريق أنور القاضي قائد القوات المصرية أن ألتقي بالغادر .

- من الغادر ؟
- قائد القوات الملكية .. وضحك الفريق القاضي .
- وكيف ألتقي به ؟
- مع العميد محمد أحمد قاسم ضابط شئون القبائل .
- وأين سألتقي به ؟
- في مواقعهم .
- ولماذا ؟
- اتفاق من وقت لآخر بيننا وبينهم .

انتقلنا بسيارة نصف نقل ، في داخلها جثة ثقيلة ، كان في السيارة السائق ، والعميد قاسم وأنا . وسألت مرافقي عن تلك الجثة الثقيلة ، فابتسم ، وقال إنها رشوة للغادر ، نصف مليون ريال فضة ، حوالي اثنين مليون جنيه ، سنقدمها للغادر ليوقف الحرب قليلا ، حتى لا يفصل رؤوس شبابنا عن أجسادهم .

كانت تراجيديا هذه الرحلة نقطة تحول هامة : لقد تحدثنا طويلا وقضينا الليل في « خيمة » اللواء عثمان نصار ، وفي الصباح ذهبنا الى الغادر رجل بدوي نحيل الجسد قصير القامة يحمل بندقية على كتفه ، لا يعرف الا القتل والغدر ، وفي رحلة العودة تحدثنا ..

- أعتقد أن قواتنا في مصر سليمة ..

- ماذا تعني بسؤالك ؟

- لو غدرت بنا اسرائيل .. فاعتقد أن القوات المصرية في سيناء كفيلة بضرب اسرائيل .

* * *

وحول اجابة هذا السؤال كان حديث رحلة العودة بالكامل ، قال إن حرب اليمن التهمت كل إمكانيات القوات المسلحة المصرية ، وأن اسرائيل لو قامت بضربة ، فسوف تكون مؤثرة إن لم تكن قاضية .. لماذا ؟

القوة المصرية الضاربة في اليمن ، ويصعب - بعد تشابك الأحداث - أن تنقل إلى القاهرة ، وإذا نقلت إلى القاهرة فهي في حاجة الى عام على الأقل من التدريب على مواجهة القوات الأسرائيلية ، وخاصة أن كل إمكانيات التدريب للقوات المصرية الموجودة على أرض الوطن غير متوفرة ، وأن القيادة المصرية لا تتصور أن هناك حربا ممكن أن تنشب في أي لحظة بين مصر واسرائيل ، لذلك فهي مشغولة بحرب اليمن الساخنة ، ومشغولة بحرب الأنظمة العربية ، وتأتي اسرائيل في ذيل أهتمامات القيادة السياسية ..

شغلتني هذه القضية على مدى عام كامل .. وسألت عشرات من كبار ضباط القوات المسلحة في ذلك الوقت .. وكان أغلب هؤلاء الضباط يؤكدون همسا أن القوات المصرية لم تعبأ ، سواء معنويا أو قتاليا للدخول في معركة مع اسرائيل ، وأن التوجيه المعنوي للقوات المسلحة منصب على أمرين :

* أولا : قضية حرب اليمن .

* ثانيا : الأمن السياسي داخل القوات .

- واسرائيل ؟

- لا ... لا يوجد تعبئة للدخول معها في معركة .

* * *

سألت أحد الضباط عن جدوى حرب اليمن .. قال لي أمرا خطيرا مازلت أذكره حتى الآن :

- في فترات الركود القتالي ، يجلس الضباط يتحدثون بحماس عن أحوال الوطن ، وسلبيات النظام وايجابياته ، وربما يتحول الحديث إلى تنظيم والتنظيم الى عمل ، وهي عقدة تمكنت من النظام ، لذلك كان لابد من استمرار « دوران » القوات المسلحة في حلقة شبه مفرغة ، بحيث لا يتمكن فرد من أفرادها من التقاط أنفاسه ، ويفكر في كل ما يجري حوله ، ولذلك شهدت القوات المسلحة سلسلة من التحركات داخل وخارج الوطن لم تتوقف أبدا .. ثم كانت حرب اليمن فرصة لذلك .

- واسرائيل ؟

- لا أدري .. ما اذا كانت القيادة السياسية تعلم نوايا اسرائيل جيدا أم لا .

- وما هي نوايا اسرائيل ؟

- تدمير القوات المسلحة المصرية ، في لحظة ما ، وبضربة خاطفة وكلما نعيد بناء هذه القوات مرة أخرى ندمرها ، فهي هنا لاتدمر القوات المصرية فحسب ، بل تدمر الأقتصاد المصري ، واذا تم القضاء على الأقتصاد المصري فان مصر تذهب الى اسرائيل راكعة ، واذا ركعت مصر ، ركع خلفها كل العرب وانتهت القضية الفلسطينية ..

- أتصور أن القيادة تعلم ذلك ؟
- تعلم أو لا تعلم .. ليست هذه القضية ، ولكنها تخطط لغير ذلك ..

الصورة هنا كانت قاتمة جدا ..

* * *

أنتقل إلى صورة أخرى ... صورة معاكسة تماما .. وكان هذا الحوار في اليمن .. وكان بيني وبين اللواء عثمان نصار .. ويشهد عليه زميلي الدكتور محمد صلاح قبضايا ، وكان يعمل محررا عسكريا لصحف مؤسسة أخبار اليوم ، وسألت اللواء عثمان نصار تعلمي أنه واحد من المقربين للمشير عبد الحكيم عامر .

- وإسرائيل ؟
- لو فكرت في العدوان علينا ، فسوف نشق طريقنا الى تل أبيب .. وتنهي احتلالها لفلسطين .. لا .. قواتنا بخير .. إنها تحارب هنا - يقصد اليمن - ببطولة سوف يسجلها التاريخ .. وفي ظروف صعبة جدا .. وعدو يصعب رؤيته أو تحديده .. ورجال لا نعرف لمن ينتمون هذه اللحظة .. ولمن ينتمون بعد هذه اللحظة ..

- هم يقاتلون هنا .. ولكن المعركة في الشمال ؟
- نعم القوة الضاربة هنا .. ولكن يمكن نقلها بسهولة .
- نحتاج لأيام . وإسرائيل تريد حرب اليوم الواحد ، والضربة الأولى القاضية .
- اسمع .. أنت انهزامي .. هل تريد أن تقول لي - وأنت مدني - أنك تعرف أكثر من كبار القادة العسكريين والسياسيين ؟

ثم سكت وقال

- هل سمعت عن القاهر والظافر ؟
- نعم ..

- إذن .. أسكت .. هل تريد أن ننشر خططنا لكي تطمئن ؟

* * *

كان الرجل خفيف الظل ، وكان يتحدث بثقة ما بعدها ثقة .. وصدقته .. لأني أرغب في ذلك .. وأنهى حديثه بنكتة .. وعاد لي الأمل .. فربما هناك أسلحة سرية ، وهناك قوات لا يعلم عنها أحد ، وهناك خطط لمواجهة غدر إسرائيل .. أنا أو غيري لا نعلمه ..

* * *

كنت في بيتي على أطراف مدينة المهندسين ، وكان يزورني والد زوجتي وقال :

- لقد استدعوا ابني .. يبدو أن هناك حربا .
- قلت : ربما .
- قال ولكن قواتنا في اليمن .

قلت لدينا ما يكفي لتحرير فلسطين .

قال الرجل وهو يتلعثم بين الشك واليقين : لقد كنت في زيارة لأحد أقاربي بجاردن سيتي ، وشاهدت عشرات الدبابات متجهة الى سيناء ، وسط للسفارات ، وأمام عدسات التليفزيون ، ودهشت ، ما أعلمه أن تحرك القوات لابد أن يكون سريا ، فكيف يتم تحريك القوات في الشوارع ، أتصور أنها مظاهرة قوة فقط ، ولن تكون هناك حرب .

قلت : مشكلتنا أننا أصبحنا جميعا عسكريين .

قال : أنا أقول هذا .. لأن إسرائيل ليست جيشا من العاهرات كما قالت إحدى المجلات المصرية .. ولكنه جيش قوي .

يومها .. قلت للرجل الذي اعتبرته دائما في مقام والدي كلاما لا يليق لم أكن أقول هذا للوالد ، ولكن كنت أقوله لنفسي ، لكي أطمئن أنا .. فمن خلال قراءاتي لفكر العدو الصهيوني كنت أعلم أن الحرب قائمة لا محالة في عدة حالات :

- في حالة اغلاق خليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية .
- في وصول قوات عربية الى الأردن .
- في تنفيذ توقيع اتفاق عسكري بين مصر والأردن أو بين الأردن ومصر .
- في حالة دخول قوات ثقيلة قطاع غزة .
- في زيادة العمليات العسكرية ضد اسرائيل أو ما تسميه النشاط الأرهابي .

لقد علموا في اسرائيل جنودهم أن حالة واحدة من الحالات السابقة تحدث ، فهي تعني اعلان الحرب ، وإنها تحطات وتطلق اسرائيل الرصاصة الأولى .

وكانت مصر ، قد أقدمت على كل هذه الأجراءات ، وقامت العراق بإرسال قواتها إلى الأردن ، وكانت في الطريق لتدخل الضفة الغربية .

لذلك .. أخذت من الصور المتناقضة ، ما يدفعني إلى الأطمئنان ، بأن في جعبة القيادة الكثير من الخطط التي تواجه بها العدو الصهيوني .

* * *

في جو الحرب الدراماتيكي ، نسيت كل شيء الا ضرورة أننا سوف نحقق النصر ، لذلك طلبت تصريحا من المخابرات الحربية للسفر إلى مدينة غزة ، لأدخل مع القوات المصرية المنتصرة الى تل أبيب .

وفي الساعة التاسعة .. وكنت في بيتي .. وكان تليفون زوجة أحد الضباط تخبرنا بأن الحرب قد قامت ، وتقول :

- أن طائرات اسرائيل ضربت مطاراً قريبا منها .

* * *

لم أصدق .. فهل يمكن أن تخترق طائرات إسرائيل حزام الأمن في سيناء وقناة السويس ، ثم تصل الى مطار في قلب القاهرة وتضربه .

وفتحنا المذياع .. فعلمنا من المذيع أننا في قمة انتصاراتنا ، وأن طائرات العدو تتساقط كالحمام في بلاد الرماية أمام طلقات رماة مهرة .

وذهبت الى الجريدة ، وكان الناس يهتفون ويهللون كلما سمعوا بيانا بسقوط طائرات العدو ، وتدخل قواتنا في اتجاه تل أبيب وبير سبع .

في الجريدة ، حيث توجد كافة وكالات الأنباء العالمية ، تبث أخبارها من كل أنحاء العالم ، وسألت عن ضرب مطار في القاهرة ، فكانت أن تحدث مشاجرة بيني وبين زملائي في قسم الترجمة ، وصفني أحدهم أني وصفني بعدو الثورة والزعيم عبد الناصر ، فلقد كانت اسرائيل لا تذيع شيئا عن تحركاتها أو تقدمها ، أو معاركها في سيناء .

اتصل بي موظف الاستعلامات .. وقال لي أن تصريح السفر الى غزة قد وصل ، ومعك محمود عبد الهادي ، وحاولنا السفر يوم الحرب ، فلم نتمكن ، وفي السادسة صباحا من يوم الثلاثاء السادس من يونيو عام ١٩٦٧ ، ركبت وزميلي محمود عبد الهادي الاتوبيس ، متجها الى الاسماعيلية ، ومن الاسماعيلية سوف نتجه إلى قطاع غزة .

* * *

كان بالاتوبيس عدد قليل من الناس ، وقد اقتربوا من السائق ليسمعوا راديو ترانزستور وضعه السائق بجواره ، وفي الأتوبيس جندي لا يزيد عمره عن عشرين عاما ، وكان يبدو على الجميع أنهم لم يذوقوا طعم النوم ، ولكن عليهم - أيضا - سمات السعادة للانتصار الذي حققته قواتنا من خلال البيانات التي تذاع من وقت لآخر ، وكانوا يهتفون ويهللون عند سماع كل بيان ، وفي فترة صمت قال الجندي :

- نحن ننسحب من سيناء .

- أخرس ياكلب .

وكادت أن تنشب معركة بين ركاب الأتوبيس وهذا الشاب ، ولولا تدخلي وزميلي محمود عبد الهادي وإلا فتكوا به تماما ، ولم ينطق الجندي بكلمة .. وعندما سكت الركاب ، حيث كانت الكلمة كالصاعقة هزتهم جميعا وصدمتهم جميعا ، ولم يصدقه أحد من الركاب ، تسلل الجندي الى المقعد الخلفي ، وبعد فترة ذهبت ، وجلست بجواره ، وأنا في غاية القلق :

- ماذا تقول ؟
- لا شيء .
- ما معنى لا شيء ؟
- أرجوك .. اتركني وحدي .

وبكى الجندي .. وتركته يبكي .. وبكى كثيرا .

وصاح أحد الركاب :

- يا أستاذ .. اترك هذا الجبان .. واجلس مكانك .

وتوقف الجندي عن البكاء .. ونظر الى الراكب بغضب شديد وجفف دموعه ، ونظر من النافذة ، ثم عادت دموعه تنهمر على خديه ...

- اهدأ يا صديقي .
- عندما نصل إلى الاسماعيلية سوف تصدقوني .
- يا ربك .. ماذا حدث ؟

* * *

بعد الحاح شديد ، حكى الجندي قصة غريبة ، عقلي يصدقها ، وقلبي يرفضها ، لقد كان في موقع بالقرب من قناة السويس على الضفة الشرقية من القناة وجاءت الطائرات الاسرائيلية ودكت الموقع ، لم يكن لديهم مدافع مضادة للطائرات ، كان كل السلاح الموجود في الموقع عبارة عن رشاشات بورسعيد ، وكان الموقع في انتظار السلاح الذي لم يصل ، ولا آلات لحفر الخنادق ، فمات من مات ، وبقي عشرة أفراد في مواقعهم يحملون الرشاشات ، وينتشرون بعيدا عن الموقع .

وفي الثانية ظهرا .. جاء جنود مصريون من موقع بجانبنا .. قالوا أن الطائرات الاسرائيلية ضربت الموقع ، وجاءت أوامر القائد بالانسحاب فانسحبنا جميعا الى الضفة الغربية للقناة ، ووصلنا في السابعة مساء ، وحاولنا ان نسلم أنفسنا إلى أي قيادة موجودة فلم نجد ، فذهبنا نسلم أنفسنا لمحافظ الاسماعيلية فلم نجده ، وقال لنا مسئول كبير في المحافظة :

- روحوا ... وتعالوا بكره .

فأخذت قطارا الى القاهرة ... وذهبت إلى أسرتي .. كان والدي يعلم أنني أحارب في سيناء .. حاولت أن أروي له ما حدث .. إلا أنه أخذ يضربني .. ويركلني .. ويبصق على وجهي .. ويصفني بالجبن .. وأنني جلبت له العار بين أبناء الحي .. وهو الذي كان يفخر بأن ابنه يحارب .. ويراه في بيانات الاذاعة والتليفزيون ..

وخرجت من البيت ... وجلست على مقهى في باب الحديد في انتظار أول سيارة إلى الاسماعيلية ، وهي أقرب منطقة لوجود القوات ، وركبت هذا الأتوبيس .

- عندما نصل الى الاسماعيلية سوف تصدقني .

* * *

وامتلأ قلبي مرارة وقهرا ، وحاولت ألا أصدقه فلم أتمكن ، كل كلمة تنبض بالصدق ، عضلات وجهه تقول الحق ، دموعه تتوسل لي بأن أصدقه ، فلقد كان غريقا في بحر لا يجيد السباحة في مياهه .

رغم كل هذا . تمنيت من كل قلبي ألا يكون صادقا ، وأن يكون هذا مجرد حلم ، بعيد عن الحقيقة ، أو ربما حدث له فقط ، ولكن بقية القوات معافية سليمة تشق طريقها نحو تل أبيب .

تركته ، وعدت إلى مكاني وأنا في أشد اليأس ، وسألني زميلي عما قاله .. قلت باقتضاب :

- لا شيء ...

ونظرت من النافذة الى المجهول .. وأنا في شدة حالات الاحباط .. وفجأة .. لاحت بجوارنا دبابة .. عليها جندي .. متجهة من الشرق إلى الغرب .. وعلى وجه الجندي كل بديات أسئلة ركاب الأتوبيس .. كان وجهه يقول : أنني تركت خلفي كارثة ..

وساد صمت ووجوم بين ركاب الأتوبيس ..

ووصلنا إلى الاسماعيلية ..

ونزل الركاب ..

الاسماعيلية تمتليء بالجنود والضباط .. لا يتكلمون .. الكل فى حالة ذهول .. وبين الحين والآخر تأتي طائرة اسرائيلية سوداء .. تخترق حاجز الصوت فوق المدينة .. تتصدى لها مدفعية بدوية مضادة للطائرات .. ثم تعود غيرها .. وتلقي بقنابلها عند مواقع هذه المدفعية .. ولم تتمكن في اليوم السادس من يونيو أن تصيب هذه المدفعية البسيطة والتى حمت آلافاً من الجنود العائدين من سيناء .

آه .. صدقت رواية جندى اتوبيس السادسة صباحا .

بل أن الكارثة أكبر مما تصوره هذا الجندى البسيط .

هنا .. الهزيمة عارية .. بلا بيانات .. ولا أناشيد .

وقضيت عدة أيام ألتقي بالعائدين ، أسمع رواياتهم وأسجلها لتكون جزءاً من هذا الكتاب .

آه .. ما أروع شعب الاسماعيلية .. وما أسوأ حكومة القاهرة .. لقد عاد المئات جرحى من سيناء .. لقد عاد الآلاف محروقين بمسحوق النابالم الحارق ، امتلأت مستشفيات الاسماعيلية بالجرحى ، ثم فتح الأهالي بيوتهم لهم ، وقام الأطباء المدنيون والعسكريون بعلاج المئات منهم . كان بعضهم لا يجد مكانا ، فيقضي ليله تحت الشجرة ينزف حتي الموت ، وتبرع فتيات وفتيان ورجال ونساء الاسماعيلية بدمائهم لجرحى حرب يونيو ، وكان يمكن انقاذ كل الجرحى لو تركوهم يتجهون الى مستشفيات مصر فى القاهرة وغيرها من المدن ..

ولكن .. لقد صدرت الأوامر بعدم انتقال أحد من القناة الى داخل القطر حتى لا يثيروا الفزع بين الناس ، فالناس حتى التاسع من يونيو لا تعلم حجم المأساة . لذلك .. مات عشرات الجرحى .. فلم تكن مدينة الاسماعيلية مهيأة لهذا الدور ، ولكن أهلها قاموا بعمل جبار سواء فى مساعدة الجنود ونقلهم من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية ، أو فى ايوائهم فى بيوتهم ، أو علاجهم .

واقتسم السكان والجنود كسرة الخبز الموجودة فى الاسماعيلية ، واستمر الحال هكذا حتى رفع الحصار عن سجناء الاسماعيلية مساء يوم ٩

يونيو عام ١٩٦٧ ، عندما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر خطاب التنحي ...

* * *

استمعنا الى خطاب التنحي فى مبنى محافظة الاسماعيلية .. وكان الحاضرون خليطا بين قلة من القوات المسلحة ، ورجال المحافظة ، وناصرى وقدم عبد الناصر في خطاب التنحي زكريا محيى الدين خلفا له .. وبعد انتهاء الخطاب المؤثر جدا ، منا من بكى ، ومنا من قال أن التنحي ضرورة ..

ثم خرجت مظاهرة صاخبة من الاسماعيلية ، واتجهت الى مبنى المحافظة .. وكانت تهتف :

اليهود شرق القناة .. عاوزين سلاح ...

- وخرج اليهم الشاب الناصرى .. وخطب فيهم .. وأعلن فى هذا الجمع تأييده لزكريا محيى الدين .. وأنه سيتصل به .. ويأتى لهم بالسلاح للدفاع عن الاسماعيلية ..

* * *

اتجهنا الى محطة القطارات ، عندما علمنا أن هناك قطارا سوف يتجه بعد دقائق الى القاهرة . وذهبنا للحصول على تذكرة فعلمنا أن القطار بالمجان ، بشرط عدم ركوب العسكريين ، وأن وزير المواصلات قد أمر بركوب كل الناس مجانا في كل القطارات المتجهة الى القاهرة ، لتنضم الى المظاهرات التي تطالب باستمرار الرئيس عبد الناصر بحكم مصر .

* * *

وصلنا الى محطة مصر بالقاهرة ، الاف من البشر تهبط من القطارات القادمة من أنحاء مصر لتشارك فى مسيرة الصباح ، وهى تهتف للزعيم بأن يبقى . وخرجنا من المحطة ، وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة صباحا ،

لنجد الملايين من البشر فى مسيرات باتجاه قصر القبة ، تهتف بحياة عبد الناصر .

وعدت بصعوبة إلى بيتى ، وأنا أبكى أكبر هزيمة لحقت بمصرنا الغالية ثم وأنا فى دهشة من الجماهير الغفيرة والتى لا يمكن أن تكون قد نظمت ، وهى تهتف لعبد الناصر .. وتساءلت : هل تعرف الملايين حجم المأساة وعمقها ؟ .. هل تتصور أن « التنحى » جزء من شروط أمريكية ، وشعبنا يرفض الشروط ؟ احترت فى الأجوبة على هذا السؤال ..

* * *

فى مجلس الشعب المصرى ، رقص بعض النواب وهزوا الوسط .. ولأول مرة فى تاريخ البرلمان المصرى أو أى برلمان فى العالم . يرقص نائب طربا ولم يبق غير فرقة موسيقية لإيقاع الرقص ، عندما أعلن أنور السادات رئيس مجلس الأمة . بعدول الرئيس عبد الناصر عن الاستقالة ...

* * *

استقرت الأمور ، وعلم الشعب ، كل الشعب عمق المأساة ، فخرجت الجماهير ثائرة تطالب بالثأر ، وتطالب أبطال الهزيمة بالرحيل ، وكان ذلك على أثر صدور أحكام هزلية ضد أبرياء من قادة القوات المسلحة ..

كان لابد من ذبح أكثر من كبش فداء لأبطال النكسة الحقيقيين ، وقدم قادة من أعظم قادة مصر إلى المحاكمة بتهمة التسبب فى الهزيمة ، وصدرت أحكام ضد هؤلاء القادة ، وانتشرت شائعات ضد غيرهم من قادة مصر . وكان معظمهم أبرياء .

* * *

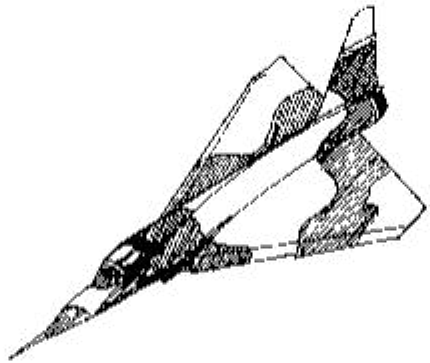
واليوم .. وبعد أكثر من عشرين عاما على أكبر هزيمة لحقت بمصر .. أقول أن صورة الهزيمة ما ضاعت من ذهنى .. وحديث الرجال ما ضاع من ذاكرتى ومذكراتى .. وصراخ الأبرياء ما فارقنى على مدى السنوات الطويلة المنصرمة .

وهذا الكتاب هو محاولة متواضعة لتبرئة الأبرياء من الهزيمة ... وحتى لا تقيم المشانق للأبرياء أبداً .. فى الوقت الذى نترك فيه المجرمين والقتلـــة.

لقد كانت حرب يونيو مصيدة لقواتنا المسلحة الباسلة .. سقطوا فيها وهم أبرياء .. سقطوا فيها وهم مقيدون .. سقطوا فيها .. والمجرمين خارج المصيدة .. يعبثون .. ورغم الاتهامات الباطلة .. ورغم قسوة النعوت التى تحملوها .. ورغم الحملة الأعلامية ضدهم .. ورغم المحاكمات الصورية .. فهم أنفسهم هم الذين صنعوا ملحمة العرب الكبرى : حرب أكتوبر .

وأرجوا أن أوفق فى إظهار الحق ، وأن أبرهن أن قادة قواتنا وأفرادها أبرياء من هزيمة يونيو التى قصمت كل قلوب المصريين حزنا وألما .

وجيه أبو ذكرى



الفصل الاول

وثيقة من طرابلس

* طرابلس - ٥ يونيو عام ١٩٦٩ ..

أنتم سفلة ..

كل رجال الاعلام فى مصر .. سفلة ..

لقد سقيتم الشعب ، كل الشعب ، بما هو أفراد القوات المسلحة مخدراً قويا ، وأجبرتموه أن يعيش فى غيبوبة كاملة ، ولم يستيقظ إلا سائراً على الأقدام .. هائما على وجهه فى صحراء سيناء ، بحثاً عن قطرة ماء .. وهروبا من الرصاصات الاسرائيلية التى رشقوها فى ظهور خيرة شباب مصر ..

* نعم .. أنتم سفلة ..

قلتم لنا بالعناوين الحمراء الفاقعة ، أن لدينا أكبر قوة جوية فى الشرق .. قل لى أين هى .. ونحن نسير فى صحراء سيناء .. وطائراتهم تصب علينا النابالم والرصاص ..

قلتم لنا بالعناوين الحمراء كلون الدم ، أن قواتنا قادرة أن تدك تل أبيب .. فأين هى القوات التى قامت بحمايتنا ونحن فى مواجهة بلا سلاح فى سيناء .. وليس تلك تل أبيب ..

قلتم لنا فى صحافتكم الصفراء .. أن مخابراتنا تملك من القدرة والوسائل والعيون أن تدخل غرفة نوم جولدا مائير وكأنها سراجيهن عمة .. فكيف لا نعلم هذا الذى ينتظرنا فى سيناء ..

قلتم لنا أن جيشهم من العاهرات والجبناء والمافوتين والأغبياء والجهلة .. وصدقنا ما قلتم .. فخرجوا علينا بكل قوة يحصدوننا ..

* الليلة .. الذكرى الأولى لخامس من يونيو الحزين .. بكيت .. وصرخت بلا صوت ... ووجدتني أجلس لأكتب لك هذه الرسالة .. أما لماذا أكتب لك ؟ .. فلأنني قرأت لك مقالاً عن المقاومة الفلسطينية .. وقلت انها أمل تحرير الأرض .. وأنا أقول لك .. أن لن يحرر مصر .. غير شعب مصر .. فبدأت أكتب لك رداً على هذه النقطة بالذات .. ولكن .. كانت الذكرى الأولى الأليمة .. فلم أتمكن أن أخرج من تكريبتها .. حاولت .. ولكن لم أتمكن ..

* * *

* والآن .. من أنا ؟

أنا .. أعمل جرسونا في أحد الفنادق الليبية .. تفضلت على الحكومة الليبية بهذا العمل .. وقبلته شاكرا .. أعيش بعيدا عن الأهل والأصدقاء .. أشعر بحنين للوطن .. أبكي .. تذرف عيناي دموعا حتى تجف الدموع .. أعيش في حزن لا يعرف أحد مداه غير ما تبقى من حطام النفس ..

لقد تخرجت من كلية الهندسة .. وبعد تخرجي التحقت بالجيش لأداء الخدمة الوطنية ، والدى رجل فقير ، يعول أسرة مكونة من أربعة أولاد وأنا أكبرهم .. لذلك طلبت السفر إلى اليمن للاشتراك في حرب اليمن ، حيث المال الوفير .. بل والراحة .. والسفر والتجارة ..

وقبل أن أودع أسرتي في طريقي إلى اليمن .. عشت مشهدا .. لم ولن أنساه مدى حياتي .. لأنه قصة في مقدمة حرب يونيو .. فأنا من سكان بولاق .. وفي بولاق تقاليد .. هي بقايا تقاليد الفروسية القديمة .. منها أن يقوم شباب الحي بحماية فتياته من عيون أي غريب ..

وفي الحي فتاة جميلة كالبدر ، كانت محل اهتمامي ، وكنت أفكر في الزواج منها بعد انتهاء تجنيدى . ورغم جمالها لا يستطيع أي شاب في الحي

أن يغازلها ، لا لأن هناك شائعات تقول إنني سأتقدم لخطبتها ، ولكن لأنها إبنة الحي .. ووالدها بقال متواضع ..

ولكن .. واحداً من شباب الحي .. ضرب عرض الحائط بكل تقاليد الأحياء الشعبية .. وغازل الفتاة الجميلة أمام كل سكان الحي .. وطاردها بعنف .. وكأنه يريد أن يأتي بها في الطريق العام .. وعلى مشهد من كل المارة .. ووصل الخبر إلى والد الفتاة .. فذهب لنجدة إبنته .. ودارت معركة ضرب فيها هذا الشاب ضربا مبرحا ..

ما زلت أتذكر كلمات والد الفتاة :

ـ هل هذه رجولة .. بدلا من أن تحميها .. تفكر في الاعتداء عليها يا نذل ..

بصقت على وجه هذا الشاب .. بعد مشاركتي في ضربه ..

كان هذا الشاب نقيبا في القوات المسلحة ، وكنا سعداء به عندما كان طالبا في الكلية الحربية ، ثم ملازما حتى تصور أنه أعلى منا وأرقى ، فانفصل تماما عن نبض الحي .

في المساء .. عاد النقيب ومعه قوة من الجنود .. نزلوا من سيارة أمام محل البقال والد الفتاة .. وأبرحوه ضربا .. في نفس الوقت اتجه طابور منهم شمالا يضرب كل من يلتقى به ، واتجه طابور يمينا ، يضرب كل من يلتقى به ، وأسرع الناس بإغلاق أبواب منازلهم ومتاجرهم .. وكاد الشارع أن يخلو من المارة ..

اتصل البعض بالشرطة .. وعندما شرحت لهم الصورة ، لم يتحرك منهم أحد .

اقتحموا بيتي .. ولكن والدى أجبرني على الاختفاء ، فليس من الحكمة مواجهة القوة الغاشمة .. وبعد الانتهاء من تأديب الحى .. خرج النقيب على رأس قوته ..

سافرت إلى اليمن .. وهذه الحادثة تمثل كل رموز مأساة مصر قبل حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، وأثناء تواجدي في اليمن ، رويت القصة لقائدي ،

الذي غضب غضبة شديدة ، وطلب مني أن أسجلها في رسالة ، وسوف يوصلها إلى المشير عبد الحكيم عامر ، وسعدت بهذا القائد ، وسجلت الحادثة ، وأخذها القائد .. وفي إحدى زيارات المشير .. قدم القائد إلى المشير قصة هذه المأساة .. قرأها المشير .. وكان تعقيبه مخيفاً إلى أبعد الحدود :

- نعم .. ولد مجدع ..

« ولد مجدع » .. ذبح القانون .. واغتال التقاليد .. وانتزع الأمان من كل نفوس سكان الحي ..

« ولد مجدع » .. انطلق بقوة غاشمة .. نضرب الشرفاء .. والمنتمين .. ويقتل فيهم الفروسية ..

مزق المشير الرسالة .. فلقد كان النقيب أحد أفراد حرسه ..

* * *

في اليمن عشت في صنعاء .. لا حرب ولا قتال .. وكان قائدي هو صديقي .. علمني كيف أحمل هموم الوطن .. كنت أقضي معه الأيام نحكي في هموم الوطن .. أذكر رأيه في حرب اليمن .. أن حرب اليمن لن تتوقف .. لأنها خلقت طبقة من المصريين واليمنيين والسعوديين استطاعت أن تكون ثروات طائلة من هذه الحرب .. وهؤلاء هم الذين يملكون قرار وقفها .. أذكر أنه كان دائماً يقول لي أن الشعب أعطى كل ما يملك للقوات المسلحة لكي توقف أطماع عدو رهيب في الشرق .. ويعني به اسرائيل .. أذكر أنه كان دائماً يقول إن الحرب مع اسرائيل سوف تبدأ عندما تنهك مصر عسكرياً واقتصادياً .. حتى تتمكن اسرائيل من ابتلاعها بأقل الخسائر ..

* * *

ألا يوجد لديكم كاتب واحد .. يملك من الشجاعة ليكتب الحقيقة عن حرب اليمن ، وآثارها التي دمرتنا ؟

ألا يوجد لديكم كاتب واحد .. يرى ما رآه هذا القائد العظيم ؟

العكس تماماً .. قمتم - يا اعلاميي مصر - بحملة تضليل رهيبة للشعب ولقواته المسلحة .. قلتم إن الطريق إلى تل أبيب لابد وأن يمر بصنعاء .. هل سمعتم عن ساكن في امبابة ، ذهب إلى مصر الجديدة ماراً بأسوان أولا ؟ .. ولكن أنتم استطعتم اقناع الشعب وقواته المسلحة بهذه الأكذوبة ..

* * *

اليمن في اعلامكم وصحفكم الصفراء .. غير اليمن الذي عشت فيها .. فهنا لا حرب .. ولكن اغتيالاً للمصريين .. وهنا استنزاف رهيب لكل موارد مصر وطاقاتها .. وفي صحفكم فان الجيش المصري منتصر ، وموارد مصر لا تنفد ، وكل شيء متوفر .. والخدمات على أحسن ما يكون ..

كله على الورق الأصفر .. وصندوق الأكاذيب .. وأعني به تليفزيونكم ..

* * *

سمعنا عن الحشود الاسرائيلية على الجبهة السورية .. وذهبت إلى القائد أستفسر منه .. قال :

- أخشى أن يكون هذا كميناً اسرائيلياً للقوات المصرية ..

قلت : كيف ؟

قال : إن هذه فرصة ذهبية لاسرائيل لكي تضرب مصر .. فهي تستفز القوات المصرية بحشودها على سوريا .. وقواتنا مبعثرة .. جزء في اليمن .. وجزء للحراسة .. وجزء في سيناء .. ثم .. كل هذه القوات في حالة استرخاء .. فلا مناورات .. لأن المناورة تتكلف الكثير .. وحرب اليمن في حاجة إلى كل ما ينفق على المناورات ..

ثم قال : ولكن أعتقد أن القيادة السياسية .. وهي تعلم أكثر منا ستسقط في هذا الكمين ..

* * *

جاءت لنا أوامر بالرحيل إلى القاهرة .. شعرت بالسعادة .. رغم أنني لم أنخر ما كنت أرجوه .. ولكن بعد أيام من وجودي في اليمن أحسست أن مكان هذه القوات هي أرض الوطن .. إذا أردنا مساعدة اليمن فهناك أكثر من طريق غير الحرب ..

لم أكن وحدي سعيداً بالعودة .. بل كان كل أفراد الكتيبة سعداء بالرحيل .. اتجهت بنا السيارات إلى ميناء الحديدة فوق باب المندب بقليل على الساحل الجنوبي للبحر الأحمر .. وركبنا البواخر .. وودعنا اليمن سعداء ..

* في الطريق .. قال لي قائد :

ـــ يبدو أننا سننضم إلى التشكيلات المقاتلة في سيناء ..

قالها وهو في منتهى السعادة .. وسألته عن حديثه السابق .. عن عدم الاستعداد .. فتحدث معي عكس ما قاله .. لقد كانت سعادته لا توصف .. أنسته الواقع ..

* * *

بعد يومين في البحر .. جمعنا القائد .. وأخبرنا أن الباخرة سوف ترسو في ميناء الطور .. لنأخذ مواقعنا في سيناء .. لنواجه اسرائيل العدو الحقيقي لمصر .

* وهتف الناس لعبد الناصر .. ولمصر ..

وقام ربان السفينة بفتح إذاعة القاهرة على الميكروفونات الموجودة بالباخرة .. وبدأنا نردد خلف عبد الحليم حافظ .. حنحارب .. كل الناس حنحارب .. وخلف أم كلثوم .. راجعين بقوة السلاح ..

واشتعل الحماس في الباخرة ..

ورددنا الأناشيد .. حتى أصابنا الارهاق .

حتى القائد .. كان يردد معنا تلك الأغاني والأناشيد ..